

خطبة الجمعة - الخطبة ٠٤٠٧ : خ ١ - سلسلة الأخلاق ١١ (ذكرى المولد ٢ - تركية النفس) ،
خ ٢ - تنمة للذكرى.

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٢-٠٩-٠٤.

بسم الله الرحمن الرحيم

الخطبة الأولى:

الحمد لله ثم الحمد لله، الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، وما توفيقى ولا اعتصامى ولا توكلّى إلا على الله. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، إقراراً بربوبيته وإرغاماً لمن جحد به وكفر، وأشهد أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم، رسول الله سيد الخلق والبشر، ما اتصلت عينٌ بنظرٍ أو سمعت أذنٌ بخبر، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وأصحابه، وعلى ذريته ومن والاه ومن تبعه إلى يوم الدين، اللهم ارحمنا فإنك بنا راحم، ولا تعذبنا فإنك علينا قادر، والطف بنا فيما جرت به المقادير، إنك على كل شيء قدير. اللهم علمنا ما ينفعنا، وانفعنا بما علمتنا، وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

أربع آياتٍ متشابهات في القرآن الكريم :

أيها الأخوة الأكارم... لازلنا في مناسبة ذكرى المولد النبوي الشريف، وقد كان موضوع الخطبة السابقة آيةً كريمة هي قوله تعالى:

﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾

[سورة الفتح : ٢٩]

والآيات التي هي موضوع هذه الخطبة أربع آياتٍ متشابهات، اثنتان في سورة البقرة، وواحدة في آل عمران، وواحدة في سورة الجمعة. فالآية التي في سورة البقرة ورقمها تسعة وعشرون بعد المئة، هي قوله تعالى في سياق دعوة سيدنا إبراهيم:

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

[سورة البقرة : ١٢٩]

هذا وآية البقرة الثانية:

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَادْكُرُونِي أَدْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلِمَا تَكْفُرُونِي ﴾

[سورة البقرة: ١٥١-١٥٢]

وآية الجمعة:

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

[سورة الجمعة : ٢]

وأما آية آل عمران فهي قوله تعالى:

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

[سورة آل عمران: ١٦٤]

النبي محمد دعوة أبيه إبراهيم :

يا أيها الأخوة الأكارم... النبي عليه الصلاة والسلام حينما حدث أصحابه عن نفسه قال:

((أنا دعوة أبي إبراهيم))

ألم يقل الله عز وجل في سياق دعوة إبراهيم:

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

[سورة البقرة : ١٢٩]

قال عليه الصلاة والسلام:

((إن حقيقة قلبي وبدء شأني دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى ابن مريم))

[من كنز العمال عن شداد بن أوس]

﴿ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ ﴾ (٦)

[سورة الصف: ٦]

((ورأت أُمِّي في المنام أنه يخرج منها نورٌ يضيء قصور الشام))

[من كنز العمال عن شداد بن أوس]

قصت السيدة آمنة هذه الرؤيا على قومها، حتى شاعت فيما بينهم، وقال علماء التفسير: إن تخصيص الشام بظهور نوره إشارة واضحة إلى استقرار دينه وثبوتها في الشام، ولهذا تكون الشام في آخر الزمان معقلاً للإسلام وأهله، وقد ورد في الصحيحين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم حتى يقاتل آخرهم

المسيح الدجال))

[أبو داود عن ابن عمر]

وانفرد البخاري فقال:

((وهم بالشام))

[البخاري عن معاذ بن جبل]

الشام خير بلاد المسلمين :

إذا:

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

[سورة البقرة : ١٢٩]

قال عليه الصلاة والسلام:

((أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى.. ورأت أُمي في المنام أنه يخرج منها نورٌ يضيء قصور الشام))

[من كنز العمال عن شداد بن أوس]

إذا الشام خير بلاد المسلمين للمسلمين يومئذٍ، إنها صفوته من أرضه، وفيها صفوته من عباده، ومن خرج إلى الشام من بعض الأقطار يعلم علم اليقين ماذا يعنيه هذا الحديث الشريف.

معرفة الله من خلال آياته :

أيها الأخوة الأكارم... أربع آياتٍ مُتشابهات. النبي عليه الصلاة والسلام يتلو على أمته، أو على أصحابه آياتِ الله، ورد في "تفسير القاسمي" أن الآيات هنا الآيات الدالة على عظمة الله، لا بدَّ من التعريف بالله، لا بدَّ من أن تُعرفَ الله من خلال آياته، فوردت هذه الكلمة في أربع آياتٍ..

﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ ﴾

[سورة آل عمران: ١٦٤]

﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ﴾

[سورة القصص: ٥٩]

تلاوة الآيات أي التذكيرُ بها..

﴿ قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

[سورة يونس: ١٠١]

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴾

[سورة الطارق: ٥]

﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴾

[سورة عبس: ٢٤]

﴿ وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾

[سورة يوسف: ١٠٥]

آيات الله في جسمك، آيات الله في طعامك، آيات الله في شربك، آيات الله في الماء الذي تشربه، في الهواء الذي تتنفسه، في النبات الذي تراه ينمو أمامك، في الأطيوار تحلق في السماء، في الأسماك تمخر عباب الماء، هذه كلها آيات الله.

تعريف الناس بالله من خلال آياته في السموات و الأرض :

لذلك:

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ﴾

[سورة البقرة: ١٥١]

وقد يقول قائل: لم لم تكن آيات القرآن الكريم؟ نجيبه لأنه بعد قليل:

﴿ وَيُعَلِّمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾

[سورة البقرة: ١٥١]

والكتاب هو القرآن الكريم، وإذا أردت الجمع بين المعنيين، ففعل الله عز وجل يريد: يتلو عليهم آياتنا الكونية التي هي في القرآن الكريم، على كل كائن هذه الآيات الأربعة تريد أن تؤكد أن الدعوة إلى الله ينبغي أن تتجه أولاً إلى تعريف الناس بالله؛ من خلال الآيات التي بثها الله في السموات والأرض، ففي الآيات الأربعة وردت كلمة (يتلو عليهم آياتنا).

معاني التزكية :

وأما:

﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾

[سورة البقرة: ١٢٩]

فالتزكية لها معنيان أيها الأخوة: معنى التخليّة ومعنى التخليّة، معنى الطهارة ومعنى النمو، إذا قلنا عن الزكاة:

﴿ خَذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾

[سورة التوبة: ١٠٣]

أي تطهر المال من حق الغير، وتزكي المال أي تتميه. إذا قلنا:

﴿ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾

[سورة آل عمران: ١٦٤]

أي يطهرهم من الشرك، يطهرهم من قبائح الذنوب، يطهرهم من المعاصي، يطهرهم من اتباع الشهوات، يطهرهم من مفسد الأخلاق، يطهرهم من الدنيا، يطهرهم من الموبقات، وينمي فيهم حب الخير، وحب الحق، يسمو بنفوسهم فيجعلها زكية طاهرة، يجعل النفس راقية مستبشرة، يجعل النفس منصفة، يجعل النفس آمرة بالمعروف ناهية عن المنكر، تحب الحق، ترحم الخلق، تعطي ولا تخاف الفقر، هذا معنى يزكيهم.

إذاً آية دعوة إلى الله لا تتصل بتزكية النفس، وتطهيرها من الشك، والشرك، والدنيا، والموبقات، والمعاصي، والفجور إنها دعوة لا تستمر، ولا تقف على قدميها، لأن أساس التدين الصحيح الخلق القويم، بل إن هناك علاقة لازمة بين التدين الصحيح وبين الخلق القويم..

((لا إيمان لمن لا أمانة له ولا دين لمن لا عهد له))

[أحمد عن أنس بن مالك]

﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكذِّبُ بِالْإِيمَانِ * فَذَكَرَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ﴾

[سورة الماعون: ١-٢]

﴿ فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ﴾

[سورة القصص الآية: ٥٠]

الرسول الكريم فصل آيات القرآن الكريم و شرح أحكامه :

أيها الأخوة الأكارم... أما الآية التي في سورة البقرة والتي رقمها واحد وخمسون بعد المائة فهي:

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا ﴾

[سورة البقرة: ١٥١]

دققوا في معنى (كما)..

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ﴾

[سورة البقرة: ١٥١]

يطهركم، وينمي فيكم الفضائل..

﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾

[سورة البقرة: ١٥١]

القرآن الكريم، كلام رب العالمين، الحبل المتين، النور المبين، الدستور الحكيم، المنهج القويم..

﴿ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾

[سورة البقرة: ١٥١]

وقد فسره النبي، قيّد مطلقه، وبين مضمونه، وشرح أحكامه، وفصل آياته إنها السنة النبوية، وللإمام الشافعي رحمه الله تعالى رأي حصيف في كلمة (الحكمة)، إنها السنة النبوية المطهرة. إذا الدعوة إلى الله ينبغي أن تتجه إلى التعريف بالله أولاً، وإلى تزكية النفس ثانياً، وإلى تعلم منهج الله ثالثاً. معرفة بالله، ومعرفةً بمنهجه، ثم تزكيةً للنفس، هذه الفقرات وردت في الآيات الأربعة المتشابهة، مع تقديم وتأخير، وتفصيل وتبيين..

من نعمة الله الكبرى علينا أن النبي من أمتنا و ينطق بلساننا :

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا ﴾

[سورة البقرة: ١٥١]

كما الخطاب موجّه للمؤمنين..

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ ﴾

[سورة البقرة: 1٥١]

نعمة الله الكبرى أن النبي جاءنا من بني جلدتنا، من أمتنا، من بيئتنا، ينطق بلساننا، هذا شيء يدعو إلى الشكر الجزيل لله رب العالمين، هو منّا، من جلدتنا، من أمتنا، من عرقنا..

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ ﴾

[سورة البقرة: 1٥١]

وبعضهم يقول: (منكم) أي بشر، من بني البشر؛ يحسّ بما تحسون، ويتألم بما تتألمون، ويشعر بما تشعرون..

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾

[سورة التوبة: 1٢٨]

ولولا أن النبي عليه الصلاة والسلام من بني البشر لما قامت الحجة لله عزّ وجل، لقالوا له: إنك ملك ونحن بشر، وهذا الذي تقوله لا يصدق علينا، لكنه بشر يأكل ويشرب، يأكل الطعام، إذا هو مفتقر في وجوده إلى تناول الطعام، يمشي في الأسواق، هو مفتقر في تأمين طعامه إلى السعي والكسب، هو بشر، لأنه تجري عليه كل خصائص البشر ارتقى إلى هذا المكان العليّ، لأنه يغضب كما نغضب، ويتألم كما نتألم، لأنه يجوع، لأنه يشعر بالحر ويشعر بالبرد، لأنه يشعر بالضيق إذا هاجمه أناس، أو كذبه أناس، إنه من طبيعة البشر ولهذا كان سيد البشر، إنه من طبيعتهم تجري عليه كل ما يجري عليهم، إذا كان المثل الأعلى، والقُدوة الصالحة، والأسوة الحسنة..

أيها الأخوة الأكارم... هذا معنى قول الله عزّ وجل:

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ ﴾

[سورة البقرة: 1٥١]

وهذه (من) للتبعيض..

تركية النبي المؤمنين بإرشادهم وتوجيههم :

﴿ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ ﴾

[سورة البقرة: 1٥١]

إما أنه يزكيكم بتوجيهكم، هذه نهانا عنها، وهذه أمرنا بها، وهذه كرهها، وهذه أفرّها، وهذه حذرنا منها، وهذه أذرنا منها، إذا هو يزكينا بأقواله، يزكينا بأحواله. حنظلة كان يبكي في الطريق، مرّ به الصديق قال له: ما لك يا حنظلة تبكي؟ قال: نافق حنظلة، قال: ولم يا أخي؟ قال: نكون مع رسول الله ونحن والجنة كهاتين، فإذا عافسنا الأهل ننسى، فقال

الصديق رضي الله عنه: أنا كذلك يا أخي، انطلق بنا إلى رسول الله، فانطلقا إليه، وقصاً عليه القصة، فقال عليه الصلاة والسلام:

((نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا))

[مسلم عن حنظلة]

((لو أنكم تكونون على كل حال على الحالة التي أنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكفهم
ولزارتكم في بيوتكم))

[مسلم عن حنظلة]

إذاً " يزيكهم " إما بإرشادهم وتوجيههم، وأمرهم ونهيهم، وتبيين شرع الله لهم، وإما بقلبه المفعم حباً لله عزّ وجل، وإما باتصاله الشديد بالله عزّ وجل، فإذا أقبلوا عليه، واتصلوا به، وأحبوه، سرت إليهم مشاعر الحب، ومشاعر الطهر، ومشاعر التزكية.

مهمة المؤمن في الدنيا :

يا أيها الأخوة الأكارم... الآية مفتاحها في آخرها:

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾

[سورة البقرة: ١٥١]

أين جواب (كما)؟ كما فعلت معك كذا وكذا، لو أنني سكت لقلت: لماذا أفعل؟ أين تنمة الكلام؟ الكلام مُتَّصِل، كلمة (كما) تحتاج إلى جواب..

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾

[سورة البقرة: ١٥١]

الجواب:

﴿ فَادْكُرُونِي ﴾

[سورة البقرة: ١٥٢]

أين فَادْكُرُونِي؟ لعبادي..

﴿ اذْكُرْكُمْ ﴾

[سورة البقرة: ١٥٢]

إذاً هذه دعوة من الله عزّ وجل إلى المؤمنين، كما ذَكَرَكَ الله عزّ وجل، كما مَنَّْ اللهُ عليك فهذا إلى دينه، كما مَنَّْ اللهُ عليك فَعَرَّفَكَ بآياته، كما مَنَّْ اللهُ عليك فَعَرَّفَكَ بكتابه، كما مَنَّْ اللهُ عليك فَعَرَّفَكَ بسنة نبيه، ما مهمتك أيها الأخ الكريم؟ أيها المؤمن؟ يا من اهتديت إلى الله، يا مَنْ عرفت شرع الله، يا مَنْ طَبَّقْتَ سنة رسول الله ما مهمتك؟ قال:

﴿ فَادْكُرُونِي اذْكُرْكُمْ ﴾

[سورة البقرة: ١٥٢]

وإن من شكر الله عزَّ وجل لنعمة الهدى أن تكون سبباً في هدى الآخرين، إن من شكر الله استنباطاً من قوله تعالى:

﴿ فَاذْكُرُونِي أَنْذُرَكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي ﴾

[سورة البقرة: ١٥٢]

أي إن ذكرته للناس فهذا شكر نعمة الهدى، هذا زكاة نعمة الهدى، إن ذكرته للناس فقد شكرت له الهدى الذي منَّ الله به عليك.

إذا أي مؤمنٍ مطالب أن يبين كما عرف، أن يهدي كما اهتدى، أن يبين للناس كلام الله كما فهمه، أن يبين للناس سنة النبي كما عرفها، أن يسعى في تزكية الآخرين كما تزكى، فزكاة الهدى، وزكاة تزكية النفس، وزكاة معرفة منهج الله ببيان الآيات، وبيان القرآن الكريم والسنة، والسعي لتزكية الآخرين، هذه الآية الأولى:

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي ﴾

[سورة البقرة: ١٥١-١٥٢]

لعبادي..

﴿ أَنْذُرَكُمْ ﴾

[سورة البقرة: ١٥٢]

ومن باب التمثيل والتقريب: لو أن أباً كان غنياً ومقتدراً، واعتنى عنايةً بالغةً بابنه، قبل موته قال: يا بُني كما اعتنيت بك، وعلمتك، ونلت أعلى الشهادات، وأصبحت شخصية مرموقة في المجتمع، علمتك وهذبتك وأمدتكم بالمال وبكل ما تحتاج، فوصيتي عندك أن تعتني بإخوتك الصغار كما اعتنيت بك..

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي ﴾

[سورة البقرة: ١٥١-١٥٢]

لعبادي..

﴿ أَنْذُرَكُمْ ﴾

[سورة البقرة: ١٥٢]

إن ذكرتموني لعبادي ذكرتكم برحمتي، إذا أردت أن تسعد فأسعد الآخرين، إذا أردت أن ترفي عند الله فكن معواناً لعباده الضائعين، إذا أردت أن ترتقي في سلم الإيمان فكن مناراً للتائهين، هؤلاء عباد الله، الخلق كلهم عباد الله، وأحبهم إلى الله أنفعهم لعياله.

لذلك قال بعض العلماء: إن ذكرتموني لعبادي ذكرتكم برحمتي، لم أنسكم. أي خصصتكم برحمة من عندي، وفتحتكم، أعطيتكم سؤلکم.

((من شغلته ذكري عن مسألتي أعطيته فوق ما أعطي السائلين))

[من الدر المنثور عن عمر بن الخطاب]

الأمية في النبي كمالٌ ليبقى الوحي صافياً :

أيها الأخوة الأكارم... هذه الآية الأولى من سورة البقرة، وأما الآية التي في سورة الجمعة فلها تفصيلٌ دقيق. ربنا جل جلاله يقول:

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ ﴾

[سورة الجمعة : ٢]

أيُّ أراد الله عزَّ وجل لهذا الوحي العظيم، لهذه الدعوة الخالدة أن تكون خالصة من كل ثقافةٍ أرضية، لو أن هذه الدعوة الإلهية ظهرت في أمةٍ لها في العلم باعٌ طويل، ولها في الحضارة شأوٌ عظيم لاختلط الأمر على الناس، ما عرفوا أهدأ من حضارة هذه الأمة أم من وحي السماء؟ لذلك شاءت حكمة الله جلَّ جلاله أن تكون هذه الأمة أميةً، وهذا نقصٌ بها، وأن يكون هذا النبي أمياً، وهذا كمالٌ به، لأن الأمية في النبي عليه الصلاة والسلام كمالٌ ليبقى الوحي صافياً، هو أميٌّ ولكن يوحى إليه..

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾

﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾

[سورة الجمعة : ٢]

قال النجاشي: يا جعفر حدثنا عن هذه الرسالة؟ قال: "أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونسيء الجوار، ونقطع الرحم، ويأكل القوي منا الضعيف، حتى بعث الله فينا رسولاً نعرف أمانته، وصدقه، وعفافه، ونسبه، فدعانا إلى الله لنعبده، ونوحده، وندع ما يعبد آباؤنا من الحجارة والأوثان، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، والكف عن المحارم والدماء".

معرفة الله شيء ومعرفة منهجه شيء آخر :

أيها الأخوة الأكارم... بقي في الآية إعجاز..

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾

[سورة الجمعة : ٢]

أيُّ أن معرفة الله شيء ومعرفة منهجه شيء آخر، أنت بالكون تعرفه، وبالشرع تعبه، معرفته شيء وعبادته شيء آخر، تعبه من خلال الكتاب والسنة، وتعرفه من خلال آياته الكونية..

فضل الله عزّ وجل ليس قاصراً على أمةٍ دون أمةٍ :

﴿ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

[سورة الجمعة : ٢-٣]

أي أمةٍ أخرى غير الأمة العربية سوف تدخل في دين الإسلام، فإن دخلت فهي منكم وأنتم منها، آية أمةٍ اعتنقت هذا الدين فهي منكم، هذه إشارة إلى ما سيكون، وهذا من إعجاز القرآن الكريم، ومن غيب المستقبل..

﴿ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * وَأَخْرَيْنَ ﴾

[سورة الجمعة : ٢-٣]

قال علماء التفسير: هذه معطوفة على الأميين هو الذي بعث في " الأميين... وآخرين ". أي أمةٍ أخرى سوف تدخل في دين الله أفواجا، فإن دخلت فهي منكم لأن الإسلام لا يعرف موطناً، أي إنسان اعتنق الإسلام فهو منا ونحن منه..

﴿ وَأَخْرَيْنَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾

[سورة الجمعة : ٣]

يؤكد هذا قول النبي عليه الصلاة والسلام: "ليست العربية بأحدكم من أب وأم، ولكن من تكلم العربية فهو عربي"

ألا ترون أحيانا أن إنساناً ليس من هذه الأمة يحب الله حباً جماً، ويُقبل على تعلم هذه اللغة ليفهم كلام الله، ويلتزم شرع الله، فإذا هو أقرب إلينا من أنفسنا؟!..

﴿ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ ﴾

[سورة الحديد : ٢١]

أي أن فضل الله عزّ وجل ليس قاصراً على أمةٍ دون أمةٍ، على أناسٍ دون آخرين، فضل الله عام..

﴿ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾

[سورة الحديد : ٢١]

من ظلم نفسه أو ظلم الآخرين كان هذا الظلم حجاباً بينه وبين ربه :

لكن السؤال الآن: ما علاقة الآية التي تليها؟!..

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً ﴾

[سورة الجمعة: ٥]

هذه أبلغ، تربية راقية وإشارة لطيفة؛ أن أيها العرب جاءكم هذا النبي العظيم، وأنزل عليه هذا القرآن الكريم، وقد كُفِّتْمْ معرفته وتطبيقه، فإن فعلتم فزُتُمْ، وإن لم تفعلوا، إن أدركتم له ظهوركم، أو إن جعلتموه وراء ظهوركم، إن أعرضتم عن تلاوته، وعن تدبره، وعن تطبيقه ماذا يحل بكم؟

يحل بكم كما حلّ بغيركم، هم حينما حُمِلُوا التوراة، أي كُفُوا معرفتها، وكُفُوا تطبيقها، ولم يفعلوا، قالوا:

﴿ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا ﴾

[سورة البقرة : ٩٣]

مثلهم عندئذٍ كمثل الدابة التي حُمِلَتْ عليها أسفاراً عديدة، ما حَظَّها من هذه الأسفار؟ ما حَظَّها من هذه الكتب؟ الثقل والمشقة، أما أن تفهم هذه الدابة شيئاً!! والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿ مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ

كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

[سورة الجمعة: ٥]

تُشير الآية إلى أن الإنسان إذا ظلم نفسه، أو ظلم الآخرين كان هذا حجاباً بينه وبين الله عز وجل، فإذا كان مُنتمياً إلى الدين الإسلامي، وبين يديه قرآن كريم، كان في حجابٍ عن هذا الكتاب الكريم، وكان حظه منهُ المشقة والتعب دون الهدى والرشاد.

من أعرض عن كلام الله و تطبيقه مثله كمثل اليهود مع توراتهم :

فيا أيها الأخوة الأكارم... آيات سورة الجمعة دقيقة جداً..

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ

وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ * وَأَخْرَجَ

[سورة الجمعة : ٢-٣]

بعث في " الأميين " وفي " آخرين " ..

﴿ وَأَخْرَجَ مِنْهُمْ لِمَا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ * ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو

الْفَضْلِ الْعَظِيمِ * مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا ﴾

[سورة الجمعة : ٣-٥]

دابةٌ تحمل كتباً عظيمة، هل فقَّهت شيئاً؟ هل علّمت شيئاً؟ هل استفادت مما في هذه الكتب من معارف؟ من حقائق؟ من قوانين؟ من دلائل؟ من أشياء تنفع الإنسان؟ لا. فهذا تعريضٌ، وقد ورد في بعض التفاسير أن هذه الآية وردت على أسلوب: " إياك أعني واسمعي يا جارة " وكأن الله عز وجل تلطف بالمؤمنين وذكر لهم هؤلاء الذين حُمِلُوا التوراة ثم لم يحملوها.

أيها الأخوة الأكارم... لو أن أحدنا أعرض عن فهم كلام الله، أعرض عن تطبيقه، لكنه وضعه في بيتٍ جميل، وصدّر به غرفته، وضعه في مَرَكَبَتِهِ، وضعه في محله التجاري، لم يقرأه، لم يتفقه، لم يتدبر، لم يطبق، مثله مع هذا الكتاب الكريم كمثل اليهود مع توراتهم..

﴿ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا ﴾

[سورة الجمعة: ٥]

وقد أجمع المفسرون على أن كلمة (حُمِّلَ) بمعنى كُفِّفَ معرفة التوراة وتطبيق أحكامها، حُمِّلنا القرآن أي كُفِّفنا معرفته وتطبيق أحكامه. فإذا حضرت مجلس علمٍ فيه تفسيرٌ لكتاب الله فهذا من باب التكليف الإلزامي الذي ألزمك الله به، أن تتعرَّفَ إلى كلام الله، وأن تنتقل إلى مرحلة تطبيق أحكام الله.

أيها الأخوة الأكارم... ونحن نحتفل بذكرى المولد النبوي الشريف، أوردت لكم هذه الآيات الأربعة المُتشابهات، التي تفيد أن دعوة النبي عليه الصلاة والسلام مُلَخَّصَةً بأربعة أركان: معرفة الله من خلال الكون، معرفة منهجه من أجل أن تعبدته من خلال الكتاب والسنة، الحكمة هي السنة، ثم تركية النفس عن طريقين؛ عن طريق تنفيذ الأمر والنهي من قِبَل النبي، وعن طريق الاتصال بالله اتصالاً يُطَهِّرُ هذه النفس من أدرانها، ويزكيها بمكارم الأخلاق، فإن مكارم الأخلاق مخزونةٌ عند الله تعالى، فإذا أحبَّ عبداً منحه خلقاً حسناً.

أيها الأخوة الأكارم... حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم، واعلموا أن ملك الموت قد تخطانا إلى غيرنا وسيتخطى غيرنا إلينا فلنخذ حذرنا، الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى.

* * *

الخطبة الثانية :

أشهد أن لا إله إلا الله وليّ الصالحين، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله صاحب الخلق العظيم، اللهم صلِّ وسلم وبارك على سيدنا محمدٍ وعلى آله وصحبه أجمعين.

تطبيق سنة النبي في بيوتنا و أعمالنا :

أيها الأخوة الأكارم... لازلنا في موضوع المولد النبوي الشريف، وكل ما أتمناه على الله عزَّ وجل، وأتمناه عليكم أن نستفيد من هذه المناسبة، فنبحث عن شمائل النبي عليه الصلاة والسلام، ونحاول أن نطبق سنته في بيوتنا، وفي أعمالنا، لقول الله عزَّ وجل:

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ ﴾

[سورة الأنفال: ٣٣]

فهم المفسرون هذه الآية على وجهين ؛ الوجه الأول: أن الله جلَّ جلاله ما كان ليُعذب هذه الأمة والنبي عليه الصلاة والسلام بين ظهرانيهم، لا يزال يدعوهم.

وتفهم هذه الآية على وجهٍ آخر: مادامت سنة النبي عليه الصلاة والسلام مطبقةً في حياتهم، في بيوتهم، في أعمالهم، في نُزُهاَتهم، في نشاطاتهم جميعها، فالله سبحانه وتعالى ما كان ليُعذبهم، فأنت إذا طبقت سنة النبي عليه الصلاة والسلام فهذا أمانٌ لك من عذاب الله، وكيف تطبق سنة النبي ؟ لا بدَّ من أن تعرفها بادئ ذي بدء، إذاً لا بدَّ من أن تعرف حديث رسول الله، لا بدَّ من أن تعرف سنته القولية، والعملية، والإقرارية، إذاً لا بدَّ من أن تطلب العلم، لا بدَّ من أن تتعلم ما في

كُتِبَ السُّنَّةُ مِنْ أَحْكَامٍ، وَمِنْ تَوْجِيهَاتٍ، وَمِنْ فَضَائِلٍ، وَمِنْ مَوَاقِفٍ، وَمِنْ مَوَاعِظٍ، إِذَا طَلَبَ الْعِلْمَ لَيْسَ فَرَضًا كِفَائِيًّا - كَمَا يَدْعِي الْبَعْضُ - إِنَّهُ فَرَضٌ عَيْنِي عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ.

وَهَلْ سَمِعْتُمْ رَجُلًا يَحْمِلُ شَهَادَةً، وَقَدْ بَلَغَ رَتَبَةً عِلْمِيَّةً مِنْ دُونَ أَنْ يَلْتَحِقَ بِجَامِعَةٍ؟ مِنْ دُونَ أَنْ يَقْتَطِعَ مِنْ وَقْتِهِ وَقْتًا لِمَعْرِفَةِ كَلَامِ اللَّهِ وَكَلَامِ رَسُولِهِ؟ مِنْ دُونَ أَنْ يَأْتِيَ بِيُوتِ اللَّهِ لِيَتَعَلَّمَ؟ مِنْ دُونَ رِسْمِ تَسْجِيلٍ، وَلَا رِسُومٍ مَنْوَعَةٍ، إِنْ بِيُوتِ اللَّهِ مُفْتَحَةً أَبْوَابَهَا لِكُلِّ طَالِبِ عِلْمٍ.

فِيهَا أَيُّهَا الْأَخُوَّةُ الْأَكْرَامُ... إِذَا كَانَتْ خُطْبَةُ الْجُمُعَةِ تَدْعُوكُمْ إِلَى طَلَبِ الْعِلْمِ، فَإِنْ طَلَبَ الْعِلْمَ يَكُونُ فِي مَجَالِسِ الْعِلْمِ، إِذَا كَانَ خُطْبَةُ الْجُمُعَةِ تَتِيْرُ فِيكُمْ الْحَمَاسَ، فَالْعِلْمُ الْحَقِيقِيُّ يَجِبُ أَنْ يُطَلَّبَ فِي مَسَاجِدِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، يَجِبُ أَنْ تَحَدِّثُوا أَنْفُسَكُمْ بِحُضُورِ مَجَالِسِ الْعِلْمِ مِنْ أَجْلِ أَنْ تَتَعَرَّفُوا إِلَى كَلَامِ اللَّهِ، وَإِلَى سُنَّةِ نَبِيِّهِ، وَإِلَى تَلَاوَةِ الْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتِ.

الدعاء :

اللَّهُمَّ اهْدِنَا فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنَا فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنَا فِيمَنْ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكِ اللَّهُمَّ لَنَا فِيمَا أُعْطِيتَ، وَقِنَا وَاصْرِفْ عَنَا شَرًّا مَا قَضَيْتَ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ.

اللَّهُمَّ أَعْطِنَا وَلَا تَحْرِمْنَا، وَأَكْرِمْنَا وَلَا تَهِنَّا، وَآثِرْنَا وَلَا تَوَثِّرْ عَلَيْنَا، وَأَرْضِنَا وَأَرْضِ عَنَا.

اللَّهُمَّ اهْدِنَا لِصَالِحِ الْأَعْمَالِ، لَا يَهْدِي لِصَالِحِهَا إِلَّا أَنْتَ. اللَّهُمَّ أَلْزِمْنَا سَبِيلَ الْإِسْتِقَامَةِ لَا نَحِيدُ عَنْهَا أَبَدًا. اللَّهُمَّ يَا أَكْرَمَ الْأَكْرَمِينَ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخَوْفِ إِلَّا مِنْكَ، وَمِنَ الْفَقْرِ إِلَّا إِلَيْكَ، وَمِنَ الذَّلِّ إِلَّا لَكَ، نَعُوذُ بِكَ مِنْ عِضَالِ الدَّاءِ، وَمِنْ شِمَاتَةِ الْأَعْدَاءِ، وَمِنَ السَّلْبِ بَعْدَ الْعَطَاءِ مَوْلَانَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لَنَا دِينَنَا الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِنَا، وَأَصْلِحْ لَنَا دُنْيَانَا الَّتِي فِيهَا مَعَاشُنَا، وَأَصْلِحْ لَنَا آخِرَتَنَا الَّتِي إِلَيْهَا مَرَدُّنَا، وَاجْعَلْ الْحَيَاةَ زَادًا لَنَا مِنْ كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلْ الْمَوْتَ رَاحَةً لَنَا مِنْ كُلِّ شَرٍّ، مَوْلَانَا رَبِّ الْعَالَمِينَ.

اللَّهُمَّ اكْفِنَا بِحِلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ، وَبِطَاعَتِكَ عَنْ مَعْصِيَتِكَ، وَبِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ، اللَّهُمَّ اسْتِرْ عَوْرَاتِنَا، وَأَمِنْ رِوَعَاتِنَا، وَأَمْنَا فِي أَوْطَانِنَا، وَاجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ أَمْنًا سَخِيًّا رَخِيًّا وَسَائِرَ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، اللَّهُمَّ بِفَضْلِكَ وَرَحْمَتِكَ أَعْلَى كَلِمَةِ الْحَقِّ وَالدِّينِ، وَانصُرِ الْإِسْلَامَ وَأَعِزِّ الْمُسْلِمِينَ، وَخُذْ بِيَدِهِمْ وَلَا تَهْمِكْ إِلَى مَا تَحِبُّ وَتَرْضَى، إِنَّهُ عَلَى مَا نَشَاءُ قَدِيرٌ، وَبِالْإِجَابَةِ جَدِيرٌ.

والحمد لله رب العالمين